تلك ذات طموحٍ وهممٍ، وهذه تحسب الواقع الذي يوائمها خيرًا وأشهى من كل مطمعٍ ومن كل همةٍ.

تلك تعطيك خير ما أعطت على البعد والحيطة، وهذه تعطيك خير ما أعطت على القرب والسرف.

كلتاهما ذات ثقافة وألمعية، لكن ثقافة هند إلى المعرفة، وثقافة سارة إلى الفطرة.

ولو نسينا العُرف والاصطلاح لحار الإنسان أيهما أقوم في السجايا والأخلاق، ولكن الذي لا ريب فيه ولا حيرة فيه أن سارة أرجح وأصلح قبل أن ينزل التكليف على أبناء آدم وحواء، وأن هندًا أرجح وأصلح حيثما نزل تكليف … أي تكليف!

وما زالت الصور النسائية تتوارى وتتهافت في بديهة همام حتى احتجبت كل صورة إلا هاتين الصورتين المتقابلتين، إحداهما قائمة في محراب، والأخرى باثقة كالزهرة من زبد العباب! وتعاقب الأيام فأصبحت صورة فنية نفيسة لا تقوم بمالٍ ومثلت الأخرى كما كانت تمثالًا من لحمٍ ودمٍ.

وكانت سارة لا تعلم من شأن هند إلا أن همامًا يعرفها ويكبرها ويزورها حينًا بعد حينٍ، فكانت تبرم بهذه الزيارات، ثم كانت تتوخى أن تغويه وتشغله في اليوم الذي يختاره لزيارة هند … فيؤجل الموعد لأنه لَمْ يكن في الحقيقة بموعدٍ، ولأن البعد يمنع الاتصال بسارة وما عندها من سرور، ولكنه لا يمنع الاتصال بهند في ذلك اليوم، وفي كل يوم.

وراح همام ينسرق من نفسه وهو يدري تارةً ولا يدري تارةً أخرى، حتى ابتلعته اللجة وشغلته سارة عن كل شاغلٍ، أو أصبحت على الأصح ممزوجة بكل شاغلٍ، فبعد أن كانت في بداية التعارف بينهما واحدة من ألوف وملايين يشملهن عنوان النساء مُفضَّلة إن حضرت، وتغيب فيُغنِي عنها مَن حضر، عادت وهي الواحدة وحدها لا يُغنِي عنها سواها، وعاد همام ينظر إلى النساء في الطرقات ويوشك أن يسأل جدًّا وصدقًا: ما بال هؤلاء؟ ولماذا خلقن؟ ومَن ذا الذي ينظر إليهن؟